سقوط بغداد

محمد مهدي الآصفي

الثقافة الاسلامية

١٠٩

سلسلة الثقافة الإسلامية

(١٠٩)

سقوط بغداد

محمّد مهدي الآصفي

اسم الكتاب: .... سقوط بغداد
المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي
الإصدار الثاني.. ١٤٣٣ هـ ـ ٢٠١٢م
الكمية.. ٥٠٠٠ نسخة
المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ أحد أعظم مصائب المسلمين في التاريخ. وقد ذكر المؤرخون تفاصيل مروّعة مفجعة عن هذه النكبة التي حلّت بالمسلمين.

ولكن هذه الدراسات في الغالب دراسات تاريخية بحتة لا تتجاوز النكبة التي حلّت بالمسلمين في سنة ٦٥٦هـ والحوادث المفجعة التي رافقت هذا الحدث المأساوي الجلل.

ونحن نحتاج الى نوع آخر من الدراسات يتجاوز الحدث المفجع الى خلفياته وأسبابه، لنحمي أنفسنا وأبناءنا من امثالها في حاضرنا ومستقبلنا.

فقد حلّت بالمسلمين مصائب اخرى من هذا النوع، من ذلك سقوط الأندلس وسقوط القدس بيد الصليبين أولاً، ثم بيد الصهيونية العالمية ثانياً وسقوط فلسطين بشكل عام وسقوط اوطان المسلمين بيد عملاء أنظمة

الاستكبار العالمي في آسيا وافريقيا وسقوط اقطار اسلامية عريقة في الاسلام في ناحية الشمال من آسيا الوسطى بيد الماركسية (الاتحاد السوفيتي)، وسقوط قلاعنا الثقافية قلعة بعد اخرى بيد أنظمة الاستكبار الغربية... وعلى هذه الوتيرة توالت على العالم الاسلامي النكبات والمصائب واحدة بعد أخرى.

ولا يكفينا السرد التاريخي لهذه النكبات فقط... من دون أن نتجاوز التاريخ الى دراسة تحليله للأسباب الثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية لهذه النكبات.

وأمامنا في هذه المقالة واحدة من هذه النكبات وهي سقوط بغداد. وقد كانت في الأصل جزءاً من دراسة وضعتها عن المحقق الحلي رحمه الله حاولت في هذه المقالة أن اضع يدي على الجرح النازف الى اليوم، لنعرف الاسباب الحقيقية الكامنة من وراء هذه النكبة لئلا يسقط الابناء فيما سقط فيه الاباء من الاخطاء. نسأل الله تعالى أن يسدد أمتنا ويحميها من أمثالها والله تعالى المسدد للصلوات.

محمد مهدي الآصفي

سقوط بغداد:

في سنة ٦٥٦ هـ سقطت بغداد حاضرة العالم الإسلامي بيد التتار بقيادة (هولاكو). وكان سقوط بغداد واحدة من أعظم النكبات التي حلت بالعالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام إلى اليوم الحاضر، وكان التخريب الحضاري، والثقافي، والاقتصادي، والسكاني الذي حلّ بعاصمة العباسيين في هذا الهجوم بمقاييس ذلك التأريخ من أوسع ما حل بالحواضر البشرية.

وقد قدر عدد القتلى في هذه المجزرة الرهيبة، كما يقول اليافعي والذهبي بألف ألف وثمانمائة وكسر[1]. وقدّرهم ابن الفوطي بثمانمائة ألف في الحوادث الجامعة (ص ٣٣٤) وابن كثير بألف ألف نسمة (البداية والنهاية ١٣ / ٢٠٢).

وكيف ما كان فممّا لا ريب فيه أنّ الخسائر البشرية كبيرة جداً وفادحة.

---

(١) مرآة الجنان لليافعي: ٤/ ١٣٧.

وقد استمر القتل والنهب سبعة أيام (ثم رفعوا السيف وبطلوا السبي)[1] وقيل: إن القتل والنهب والسبي استمر نيفاً وثلاثين يوماً[2] وقيل: أربعين يوماً.

يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن: وقد أعمل جند المغول السيف في رقاب أهل بغداد أربعين يوماً سلبوا فيها أموالهم، وأهلكوا كثيرين من رجال العلم، وقتلوا أئمة المساجد، وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والمدارس والربط، وأصبحت المدينة قاعاً صفصفاً، ليس فيها إلا فئة قليلة مشردة الأذهان. وكان القتلى في الطرقات كأنها التلال.

ولما نودي بالأمان خرج من تحت الأرض من اختفوا في المطامير والمقابر ومن لجأ إلى الآبار والحشائش كأنهم الموتى قد نبشت قبورهم، وقد أنكر بعضهم

---

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العُبري (المتوفي سنة ٦٨٥ هـ): ص ٢٧٢ (سلسلة منابع الثقافة الإسلامية).

(٢) مرآة الجنان لليافعي: ٤/ ١٣٧.

البعض، فلم يعرف الأب ابنه ولا الأخ أخاه، ثم انتشر الوباء فحصدهم بمنجله حصداً ذريعاً وفسد الهواء وعم الوباء[1].

وأما ما حل بخزائن العلم من المكاتب والمدارس في بغداد فحدث ولا حرج، فقد كانت بغداد مركزاً من أعظم مراكز الإشعاع الفكري في العالم كله في ذلك التاريخ من دون مبالغة، وقد أحرق التتار كلما وجدوا في بغداد من علم ومن مراكز للعلم، كما قتلوا كل من عثروا عليه من العلماء أو كل من كان في بغداد من العلماء، وليس بإمكان أحد أن يقدر ضخامة الخسارة التي لحقت بالفكر والثقافة الإسلامية والبشرية في هذه النكبة.

يقول قطب الدين الحنفي: تراكمت الكتب التي ألقاها التتار في نهر دجلة حتى صارت معبراً يعبر عليه الناس

---

(١) تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم: ٤/ ١٦٠ ـ ١٦١ عن الحوادث الجامعة في أعيان المائة السابعة ص ٣٣٠ و ٣٣١.

والدواب واسودت مياه دجلة بما القي فيها من الكتب[1].

ولنقرأ لتقي الدين ابن أبي اليسر هذه النفثة من شعره في بغداد:

لسائل الدمع عن بغداد أخبـار
فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا
فما بذاك الحمى والدار ديّار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت
بـه الأقاليم قد عفاه اقفار
أضحى لعصف البلى في ربعه أثر
وللدموع على الآثار آثار
يا نار قلبي نار لحرب وغى
شبّت عليه ووافى الربع اعصار
علا الصليب على أعلى منابرها

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي للدكتور جوستاف لوبون ترجمة السيد هاشم الحسن ص ٢١٤.

وقام بـالأمـر مـن يحـويـه زنـار

وكم حريم سبته الترك غاصبـة

وكان مـن دون ذاك الستر أستار

وكم بدور على البدرية انخسفت

ولـم يـعـد لـبـدور مـنـه أبـدار

وكم ذخائر أضحت وهي شائعة

مـن الـنهـاب وقـد حـازته كفـار

وكم حدود أقيمت من سيوفهم

على الرقاب وحطت فيه أوزار

ناديت والسبي مهتوك تجرّبهم

إلى السفاح من الأعداء دعار[1]

ولسنا نستطيع أن نقدر الخسارة التـي لحقـت بالإسـلام وبالبشرية في هذه النكبة التي حلـت بمدينـة السـلام، كمـا نجزم أن الخسارة الواسعة التي حلت بعاصمة العباسيين في

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ٤٣٤ و ٤٣٥ (دار الفكر).

القرن السابع الهجري لم تعوض بالمعنى الدقيق للكلمة إلى اليوم الحاضر، ولو لم تتعرض بغداد لهذه النكبة لكان تاريخ المسلمين غير هذا التاريخ، وكان للإسلام والمسلمين شأن آخر على وجه الأرض غير هذا الشأن.

مؤيد الدين ابن العلقمي:

أما كيف حدث هذا الحريق الهائل في مركز العالم الإسلامي، وكيف تمزقت هذه الدولة الكبرى وانقطعت أوصالا على يد المغول فهو فصل آخر من فصول مأساة المسلمين في التاريخ.

أما الذين لا يريدون أن يجهدوا أنفسهم من المؤرخين، في أسباب هذه النكبة الكبرى التي أحلت بالمسلمين، ولا يريدون أن يدخلوا إلى عمق هذا الجرح النازف في تاريخ الإسلام... فالجواب عندهم جاهز لا يحوجهم إلى تفكير... فقد تعود هؤلاء أن يلتمسوا لكل نكبة تحلّ بالمسلمين سبباً في شيعة أهل البيت، ولا يطول هذه المرّة وقوفهم عند هذه القضية. فهذا مؤيد الدين ابن

العلقمي الذي استوزره المستعصم العباسي آخر خلفاء بني العباس معروف بالتشيع، فلم لا يكون هو الذي يتحمل إثم هذه النكبة؟

ثم لا تسأل عن الدليل، فإن المؤلفين يتناقلون إسناد هذه الجريمة إلى ابن العلقمي، جيلا من بعد جيل، دون أن يذكروا لذلك دليلا معقولا. ثم أغرب من ذلك كله أن لا يذكروا ابن العلقمي إلا بصفته المتميزة (شيعي رافضي).

ومن العجب أن التاريخ يحفل بذكر الخيانة والإجرام في صفوف السنة والشيعة، والتاريخ يذكر ذلك كله أو بعضه، فإذا كانت الخيانة والجريمة من السنة اقتصروا على ذكر اسمه وهويته الشخصية، وإذا كانت الخيانة أو الجريمة من الشيعة لم يسندوها إليه بصفته الشخصية وإنما يذكرون إلى جانب ذلك انتماءه المذهبي.

ومن مآسي التاريخ أنّ المؤرخين يتناسون كلما مروا بهذه النكبة التي حلت بالمسلمين الأسباب الحقيقية والعميقة لهذه المأساة ويشغلهم أمر إلصاق هذه التهمة

بابن العلقمي والشيعة عن الأسباب الحقيقية التي أنهكت خلافة آل عباس، ونخرت في عرشهم وسلطانهم، وأضعفتهم واستقدمت إليهم التتار من أقصى الشرق، ليغزوهم في عقر دورهم.

وقد كان ابن العلقمي من أكثر الناس حرصاً على كفّ شر التتار وعدوانهم عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

يقول ابن العبري المتوفى سنة ٦٨٥، وهو ممن عاش وعاصر هذه النكبة في كتابه (تاريخ مختصر الدول): لما فتح هولاكو تلك القلاع - قلاع الإسماعيلية - أرسل رسولاً إلى الخليفة وعاتبه على إهماله تسيير النجدة، فشاوروا الوزير - ابن العلقمي - فيما يجب أن يفعلوه، فقال: لا وجه غير إرضاء هذا الملك الجبار ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصه، وعند ما أخذوا في تجهيز ما يسيرونه قال الدويدار الصغير وأصحابه: إن الوزير إنما يدبر شأن نفسه مع التتار وهو يروم تسليمنا إليهم، فلا تمكنه من ذلك، فأبطل الخليفة بهذا السبب تنفيذ الهدايا

الكثيرة واقتصر على شيء نزر لا قدر له.

فغضب هولاكو وقال: لابد من مجيئه هو بنفسه، أو يسير أحد ثلاثة نفر: إما الوزير، وإما الدويدار، وإما سليمان شاه، فتقدّم الخليفة إليهم بالمضي فلم يركنوا.. فسير غيرهم فلم يجديا عنه[1].

ويقول صاحب كتاب (جامع التواريخ): إنّ الخليفة عندما استشار وزيره ابن العلقمي قال له: ينبغي أن تدفعه ببذل المال لأن الخزائن والدفائن مُجْمِع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس، فيجب إعداد ألف حمل من النفائس وألفاً من نجائب الإبل وألفاً من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدّات، وينبغي إرسال التحف والهدايا في صحبة الرسل مع تقديم الاعتذار إلى هولاكو، وجعل الخطبة والسكة باسمه، ومال الخليفة إلى قبول هذا

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العبري (المتوفى ٦٨٥) : ص ٢٦٩ و ٢٧٠ (منابع الثقافة الإسلامية)، راجع سقوط بغداد تأليف بي تي رستيدو (الترجمة الفارسية): ص ٨٠ .

الرأي[1].

ولكن مجاهد الدين أيبك، وكان يلقب بالدويدار الصغير الذي كان يضمر العداوة والبغضاء للوزير ابن العلقمي استمال بعض الأمراء، وبعثوا إلى الخليفة برسالة يقولون فيها: إنّ الوزير إنما رأى هذا الرأي مدفوعاً في ذلك بمصلحته الخاصة[2].

الأسباب الحقيقية لسقوط دولة الخلافة العباسية:

ومهما يكن من أمر فإن الأسباب الحقيقية لسقوط الدولة العباسية أعمق من كل ذلك، ولا يكمن حتى في المستعصم العباسي - آخر الخلفاء العباسيين - بقدر ما يكمن في الخلفاء الذين عاشوا فترة ازدهار هذه الدولة وانتعاشها السياسي، والاقتصادي، والعسكري.

---

(١) جامع التواريخ٢ /٢١٧ لندن ١٩١٠ وتاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ١٥٦/٤ .

(٢) جامع التواريخ: ٢١٧/٢ لندن ١٩١٠ وتاريخ الإسلام للدكتور حسن ابراهيم: ٤/ ١٥٦.

ولست أعتقد أن مسؤولية المستعصم العباسي، وهو آخر خلفاء بني العباس وأضعفهم تزيد على مسؤولية هارون العباسي الذي عاش فترة ازدهار الخلافة العباسية، ويُعد من أقوى خلفاء بني العباس. ولسنا هنا بصدد البحث عن عوامل سقوط الخلافة العباسية، إلا أننا نشير إشارة سريعة إلى هذه العوامل قبل أن نتجاوز هذه النقطة من البحث:

١ - البذخ والتبذير في بيت مال المسلمين:

كان أقلية قليلة من المجتمع الإسلامي في هذا العصر من القريبين إلى قصر الخلافة، ومن رجال المال والاقطاعات الزراعية الواسعة يتمتعون بثراء واسع ويستخدمون المال في لهوهم ومجونهم بإسراف وبذخ كبيرين، ولئن كانت قصص ألف ليلة وليلة من نسج الخيال فإن جملة مما ورد في هذه القصص من إسراف الأمراء والتبذير الذي كان يجري في داخل القصور من صلب الواقع في هذه الفترة (الذهبية !) من تاريخ الإسلام..

وكل هذا الإسراف والتبذير كان يتم على حساب الطبقة المستضعفة والمحرومة في المجتمع، وكانت هذه الطبقة الواسعة الفقيرة الكادحة في المجتمع هي التي تؤمّن لقصور الأمراء ورجال المال والإقطاع تمويل هذا اللهو والمجون الذي كان يثقل كاهل بيت المال على شكل ضرائب مرتفعة وثقيلة.

والذي يقرأ تاريخ هذه الفترة من العصور الإسلامية يلمس - بشكل واضح - الفاصل الطبقي الكبير الذي كان يفصل هذه الطبقة عن تلك، والمآسي المتراكمة من حرمان الطبقة المحرومة، ومن ظلم الحكام وجورهم، والبذخ والإسراف والمجون الذي كان يجري في قصور الطبقة المترفة. ويجد أنّ ما آل إليه أمر الخلافة العباسية في عهد المستعصم آخر خلفاء بني العباس ترجع جذوره إلى عهد هارون (العصر الذهبي للخلافة العباسية !).

ومن عجب أنّنا نجد جذور سقوط الخلافة العباسية في العصر الذهبي لسلطان بني العباس.

ولكي لا نتوقف عند هذه النقطة أكثر من هذا الحد، في هذا التمهيد نلتقط للقارئ صورة واحدة لما كان يجري في قصور الخلفاء والأمراء من اللهو والمجون والإسراف والتبذير، ونحيل القارئ إذا أراد التوسع إلى الموسوعات التاريخية الكبيرة التي دونت أحداث هذه الفترة من تاريخ الإسلام.

يقول البشابشتي في كتابه المعروف (الديارات) في تعريف دير السوسي ما هذا نصّه: وهذا الدير لطيف على شاطئ دجلة بقادسية سر من رأى، وبين القادسية وسر من رأى أربعة فراسخ، والمطيرة بينهما، وهذه النواحي كلها متنزهات وبساتين وكروم، والناس يقصدون هذا الدير ويشربون في بساتينه، وهو من مواطن السرور ومواضع القصف واللعب.

ولابن المعتز فيه:

يا ليالي بالمطيرة والكرخ

ودير السوسي بالله عودي

كنت عندي انموذجات من الجنّـ
الجنّــة، لكنها بغير خلود

والقادسية من أحسن المواضع وأنزهها، وهي من معادن الشراب ومناخات المتطربين، جامعة لما يطلب أهل البطالة والخسارة.

وبالقادسية بنى المتوكل قصره المعروف ببركوارا، ولمّا فرغ من بنائه وهبه لابنه المعتز، وجعل إعذاره فيه، وكان من أحسن أبنية المتوكل وأجلّها، وبلغت النفقة عليه عشرين ألف ألف درهم[١].

قال: ولما صح عزمه على اعذار أبي عبد الله المعتز أمر الفتح بن خاقان بالتأهب له[٢]، وأن يلتمس في خزائن

---

(١) الحكاية وردت بتمامها في كتاب (مطالع البدور في منازل السرور) للغزولي (١: ٥٨ ـ ٥٩) نقلاً من كتاب (العجائب والطرف والهدايا والتحف) (تحقيق محمّد حميد الله ـ الكويت ١٩٥٩ ص ١١٣ ـ ١١٩).

(٢) وصفت هذه الحفلة في (لطائف المعارف) للثعالبي (ص ٧٤ –

الفرش بساطاً للإيوان في عرضه وطوله، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعاً، فلم يوجد إلا فيما قبض عن بني امية، فإنه وجد في أمتعة هشام بن عبد الملك على طول الإيوان وعرضه. وكان بساطاً[1] ابريسماً غرز، مذهّب، مفروز، مبطن، فلما رآه المتوكل أعجب به، فبسط في الإيوان وبسط للخليفة في صدر الإيوان سرير، ومد بين يديه أربعة آلاف مرفع[2] ذهب مرصعة بالجوهر، فيها تماثيل العنبر والند والكافور، المعمول على مثل الصور، منها ما هو مرصع بالجوهر مفرداً، ومنها ما عليه ذهب وجوهر، وجعلت بساطاً ممدوداً، وتغدّى المتوكل والناس.

وجلس على السرير، وأحضر الأمراء والقواد والندماء

---

٧٥ ليدن ١٨٦٧) وثمار القلوب (ص ١٣١).

(١) تجد وصف هذا البساط في مروج الذهب (٧: ٢٩٠ - ٢٩٤).

(٢) المرفع كمنبر: ما رفع به كمقعد: الكرسي (التاج ٥: ٣٥٩) ج: المرافع. وانظر رحلة ابن بطوطة (٣: ٣٧٨) تكملة المعجمات العربية للدوزي (١: ٥٤٣).

وأصحاب المراتب، فأُجلسوا على مراتبهم، وجعل بين صوانيهم والسماط فرجة، وجاء الفراشون بزبل[1] قد حشيت بأدم، مملوءة دنانير ودراهم نصفين، فصبت في تلك الفرج حتى ارتفعت، وقام الغلمان فوقها، وأمروا الناس عن الخليفة بالشرب، وأن ينتقل كلّ من يشرب بثلاث حفنات ما حملت يداه من ذلك المال، فكان إذا أثقل الواحد منهم ما اجتمع في كمه أخرجه إلى غلمانه، فدفعه إليهم وعاد إلى مجلسه، وكلما فرغ موضع أتى الفراشون بما يملأونه به حتى يعود إلى حاله، وخلع على سائر من حضر ثلاث خلع لكل واحد، وأقاموا إلى أن صليت العصر والمغرب، وحملوا عند انصرافهم على الأفراس والشهاري.

وأعتق المتوكل عن المعتز ألف عبد، وأمر لكل واحد منهم بمائة درهم وثلاث أثواب، وكان في صحن الدار

---

(١) الزبل واحدها: الزبيل. وعاء ينسج من خوص النخل. والزبيل معروف ومستخدم إلى اليوم عند العراقيين.

بين يدي الإيوان أربعمائة بُليّة[1] عليهن أنواع الثياب، وبين يديهن[2] ألف نبيجة[3] خيزران، فيها أنواع الفواكه من الأترج والنارنج على قلته في ذلك الوقت والتفاح الشامي والليموه[4] وخمسة آلاف باقة نرجس وعشرة آلاف باقة بنفسج.

وتقدم إلى الفتح[5] بأن ينثر على البلِّيات وخدم الدار والحاشية ما كان أعدّه لهم وهو عشرون ألف ألف

---

(١) البلية والجمع البليات: تخفيف الابلية التي تجمع على الابليات نسبة إلى مدينة (الأبلة) التي كانت قريبة من البصرة (معجم البلدان ١: ٩٧). وقال القلقشندي (صبح الأعشى ١٤: ٣٦٣) نقلاً عن رسالة لأبي إسحاق الصابي: (وأمره أن ينصب الارصاد على منازل المغنيات والمغنين ومواطن الابليات والمخنثين).

وفي كتاب (الموشى) للوشاء (ص ١٧٣ طبعه ليدن): (ورأيت جارية ابلية لبعض المخنثين وقد علقت طبلاً في عنقها بزنار).

فالبلية أو الابلية، يراد بها المرأة المغنية الراقصة في الحفلات.

(٢) الوجه أن يقال: أيديهن.

(٣) النبيحة: السفرة والطبق من الخوص أو الخيزران.

(٤) يريد: الليمون.

(٥) تقدم إلى فلان بكذا: أمره به.

درهم[1]،فلم يُقدِم أحد على التقاط شيء، فأخذ الفتح درهماً، فأكبت الجماعة على المال فنُهب.

وكانت قبيحة[2] قد تقدمت بأن تُضرب دراهم، عليها: (بركة من الله لاعذار أبي عبد الله المعتزّ بالله)، فضرب لها ألف ألف درهم نُثرت على المزيّن، ومن في حيزه، والغلمان، والشاكرية، وقهارمة الدار، والخدم الخاصة من البيضان والسودان.

وكان ممن حضر المجلس ذلك اليوم: محمّد بن المنتصر، وأبو أحمد، وأبو سليمان ابنا الرشيد، وأحمد، والعباس ابنا المعتصم، وموسى ابن المأمون، وابنا حمدون النديم، وأحمد ابن أبي رؤيم، والحسين بن الضحاك، وعلي بن الجهم، وعلي بن يحيى المنجم، وأخوه أحمد.

ومن المغنين: عمرو بن بانة، وأحمد بن أبي العلاء،

---

(١) في مطالع البدور: ألف ألف درهم.

(٢) هي أمّ الخليفة المعتز بالله العباسي، كانت رومية فائقة الجمال، فسميت قبيحة من أسماء الأضداد. توفيت في سامراء سنة ٢٦٤ هـ (٨٨٧م).

وابن الحفصي، وابن المكي، وسلمك [الزازي]، وعثعث، وسليمان الطبال، والمسدود وأبو حشيشة، وابن القصار، وصالح الدقاف، وزفام الزامر، وتفاح الزامر.

ومن المغنيات: عريب، وبدعة جاريتها، وسراب، وشارية وجواريها، وندمان، ومعنم، ونجلة، وتركية، وفريدة، وعرفان.

قال إبراهيم بن المدبر: لما طُهِّر المعتز اجتمع مشايخ الكتاب بين يدي المتوكل، وكان فيهم يحيى بن خاقان، وابنه عبيد الله وهو إذ ذاك الوزير، وهو واقف موقف الخدم بقباء ومنطقة.

وكان يحيى لا يشرب النبيذ، فقال المتوكل لعبيد الله: خذ قدحاً من تلك الاقداح واصبب فيه نبيذاً وصيّر على كتفك منديلا وامض إلى أبيك يحيى فضعه في كفه. قال: ففعل، فرفع يحيى رأسه إلى ابنه. فقال المتوكل: يا يحيى لا تردُّه. قال: لا يا أمير المؤمنين، ثم شربه.

وقال: قد جلت نعمتك عندنا يا أمير المؤمنين، فهنأك،

الله النعمة، ولا سلبنا ما أنعم به علينا منك.

فقال: يا يحيى إنما أردت أن يخدمك وزير بين يدي خليفة في طُهور ولي عهد!

وقال إبراهيم بن العباس: سألت أبا حرملة المزين في هذا اليوم فقلت: كم حصل لك إلى أن وضع الطعام ؟ فقال: نيف وثمانون ألف دينار، سوى الصياغات والخواتيم والجواهر والعدات.

قال: وأقام المتوكل ببركوارا ثلاثة أيام، ثم أصعد إلى قصره الجعفري، وتقدم بإحضار إبراهيم بن العباس وأمره أن يعمل له عملاً[1] بما أنفق في هذا الأعذار ويعرضه عليه، ففعل ذلك، فاشتمل العمل على ستة وثمانين ألف ألف درهم.

وكان الناس يستكثرون ما أنفقه الحسن بن سهل في عرس ابنته بوران، حتى أُرّخ ذلك في الكتب وسميت دعوة الإسلام، ثم أتى من دعوة المتوكل ما أنسى ذلك.

---

(١) معنى «عملاً» في هذه العبارة، كتبه ثبتاً أو إحصاء بما أنفق.

وكانت الدعوات المشهورة في الإسلام ثلاثاً لم يكن مثلها، فمنها: دعوة المعتز ـ هذه المذكورة ـ.

ومنها: عرس زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر، فإن المهدي زوج ابنه الرشيد بأم جعفر ابنة أخيه، فاستعد لها ما لم يستعد لامرأة قبلها من الآلة، وصناديق الجوهر، والحلي، والتيجان، والأكاليل، وقباب الفضة والذهب والطيب والكسوة، وأعطاها بَدنة[1] عبدة[2] ابنة عبد الله بن يزيد بن معاوية امرأة هشام، ولم ير في الإسلام مثلها ومثل الحب الذي كان فيها، وكان في ظهرها وصدرها خطان ياقوت أحمر وباقيها من الدر الكبار الذي ليس مثله. ودخل بها الرشيد في المحرم سنة خمس وستين ومائة في

---

(١)البدنة: ما يلبس من الثياب على البدن، والمراد بها هاهنا ضرب من القمصان تلبسه النساء.

(٢)ذكرها ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (ص ١٠٤ القاهرة ١٩٤٨). وكتاب بغداد لطيفور (٦: ١١٥ طبعة القاهرة).

قصره المعروف بالخلد[1]، وحشر الناس من الآفاق، وفرق فيهم من الأموال أمر عظيم، فكانت الدنانير تجعل في جامات[2] فضة، والدراهم في جامات ذهب، ونوافج[3] المسك وجماجم[4] العنبر والغالية في بواطي زجاج، ويفرق ذلك على الناس ويخلع عليهم خلع الوشي المنسوجة، واوقد بين يديه في تلك الليلة شمع العنبر في أتوار الذهب[5].

وأحضر نساء بني هاشم، وكان يدفع إلى كل واحدة

---

(١) الخلد: قصر بناه المنصور ببغداد بعد فراغه من مدينته على شاطئ دجلة، في سنة ١٥٩ «معجم البلدان ٢: ٤٥٩ والمراصد ١: ٣٦٢».

(٢) الجامات: واحدها الجام: بمعنى الكأس.

(٣) النوافج: وحدتها النافجة: وعاء المسك.

(٤) الجماجم: واحدتها الجمجمة: قدح من خشب (النهاية لابن الأثير: ١: ١٧٨).

(٥) الأتوار: واحدتها التور (بالتاء المثناة من فوقها): إناء كالاجانة يصنع من صفر أو مجارة (النهاية لابن الأثير ١: ١٢٠).

منهن كيس فيه دنانير وكيس فيه دراهم، وصينية كبيرة فضة فيها طيب، ويخلع عليها خلعة وشيء مثقل، فلم ير في الإسلام مثلها، وبلغت النفقة في هذا العرس من بيت المال الخاصة سوى ما أنفقه الرشيد من ماله خمسين ألف ألف درهم.

واسم زبيدة أمة العزيز، وزبيدة لقب، وكان أبو جعفر يرقّصها[1]، وهي صغيرة وكانت سمينة ويقول: ما أنت إلا زبيدة، ما أنت إلا زبيدة فمضى عليها هذا الاسم.

ومنها: عرس[2] المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل، بفم الصلح، وكانت النفقة عليه أمراً عظيماً. وسأل المأمون زبيدة عن تقدير النفقة في العرس، فقالت: ما بين خمسة

---

(١) الأغاني (٩: ٩٧)، وتاريخ بغداد للخطيب (١٤: ٤٣٣) وزهر الآداب (٢: ٢٣٦)، والشريشي (٢: ٢٤٥).

(٢) اشتهر خبر هذا العرس كثيراً في كتب الادب والتاريخ (تاريخ الطبري ٣: ١٠٨١ - ١٠٨٤، وثمار القلوب ص ١٣٠ - ١٣١، ولطائف المعارف ص ٧٣، وتاريخ بغداد للخطيب ٧: ٣٢١، والوفيات ١: ١٣٠ - ١٣٢، والبداية والنهاية ١١: ٤٩ - ٥٠، ومقدمة ابن خلدون ١: ٣١١ طبعة باريس، والصبوح والغبوق ص ٩٩ - ١٠٠).

وثلاثين ألف ألف إلى سبعة وثلاثين ألف ألف، فبلغ الحسن بن سهل، فقال: كان النفقة على يد زبيدة! أنفقنا خمسة وثلاثين ألف ألف.

وكان دخولها في المدينة التي بناها بفم الصلح ـ على شاطئ دجلة ـ لثمان خلون من شهر رمضان سنة عشر ومائتين.

قال: وأمهر المأمون بوران مائة ألف دينار وخمسة آلاف ألف درهم، وأوقد بين يديه تلك الليلة ثلاث شمعات عنبر وكثر دخانها، فقالت زبيدة: إن فيما ظهر من المروءة لكفاية، ارفعوا هذا الشمع العنبر وهاتوا الشمع.

قال: ولما جليت بوران على المأمون نثر عليها حباً كباراً كان في كمه، فوقع على حصير ذهب كان تحته، فقال: لله در الحسن بن هانئ ما أعظمه من شاعر فصيح حيث يقول:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها
حصباء در على أرض من الذهب

قال: وامتنع من كان حاضراً أن يلتقط شيئاً، فقال المأمون: أكرمنها ! فمدَّت زبيدة يدها فأخذت حبّه فالتقط من حضر الباقي.

وكان اسم بوران خديجة وكانت وفاتها في سنة إحدى وسبعين ومائتين في أيام المعتمد، ولها ثمانون سنة، ولبوران (شعر به) ترثي المأمون:

أسعداني على البكا مقلتيا
صرت بعد الإمام للهم فيّا
كنت أسطو على الزمان فلما
مات صار الزمان يسطو عليّا

وذكر ابن خُرداذبه: أن المتوكل أتفق على الأبنية التي بناها وهي: (بركوارا)، و(الشاه)، و(العروس)، و(البركة)، و(الجوسق)، و(المختار)، و(الجعفري)، و(الغريب)، و(البديع)، و(الصبيح)، و(المليح)، و(السندان)، و(القصر)،

و(الجامع)، و(القلاية)، و(البرج)، و(قصر المتوكلية)، و(البهو)، و(اللؤلؤة)، مائتي ألف ألف وأربعة وسبعين ألف ألف درهم. ومن العين مائة ألف ألف دينار[1].

٢ - إطلاق يد المماليك في شؤون الدولة:

بعد عصر هارون فقدت الخلافة السيطرة المركزية على أطراف البلاد الواسعة القريبة، والبعيدة، وأخذت ترتفع أصوات المعارضة هنا وهناك، ولم يعد بإمكان الخليفة أن يحكم القبضة على شؤون البلاد المختلفة، ولكي لا يفقد جهاز الخلافة السيطرة على مساحة ونفوذ وسلطان الخلافة حاول الخلفاء حاول الخلفاء أن يسدوا هذه الثغرة التي انفتحت على أمن الخلافة بالاستعانة بالمرتزقة من الموالي والمماليك الذين كانوا يُعدّون يومذاك مواطنين من الدرجة الثانية في المجتمع الإسلامي.

فلجأ قصر الخلافة العباسية إلى الاحتماء بهؤلاء

(١) الديارات للبشابشتي: ص ١٤٩ ـ ١٥٩.

المماليك والموالي واستقدموا أعداداً كبيرة منهم إلى مركز الخلافة، وأولوهم مراكز السلطة والسيادة في الجيش والشرطة، وأطلقوا أيديهم في امور الجيش والشرطة والامن، ثم في سائر شؤون الدولة. وكثر عددهم حتى ضاق الناس بهم ذرعاً في بغداد أيام المعتصم العباسي، وكثر شكوى الناس عنهم.

فلم يجد الخليفة بداً من أن ينقل مركز حكمه وسلطانه من بغداد إلى سامراء واستشرى أمر هؤلاء المماليك، وزاد نفوذهم وبأسهم في مركز الحكم والقوة في الدولة العباسية، وزاد في نفس الوقت أذاهم للناس وشكوى الناس منهم..

ورغم ذلك لم يتمكن الخليفة أن يصنع أكثر مما صنع من نقل مركز الخلافة من بغداد إلى سامراء، ولم يستطع أن يحدد من نفوذ هؤلاء المماليك، ولا أن يمنع أذاهم عن الناس.

وهل كان الخليفة العباسي يعجز حقيقة عن تحديد

نفوذ هؤلاء المماليك الذي أمكنهم الخليفة نفسه من مركز حكمه وسلطانه بيده، أم أنه كان بحاجة إليهم في توفير الحماية والأمن للقصر فلم يشأ أن يسلب عنهم ما أولاهم من النفوذ والسلطان؟

قد يكون هذا أو ذاك، وقد يكون هذا وذاك، ولكن الحقيقة الثابتة تاريخياً أن الخليفة العباسي لم يسلب من هؤلاء المماليك شيئاً مما أولاهم من النفوذ والسلطان بعد أن ضاق الناس بهم ذرعاً وكثر شكوى الناس منهم.

وفي القصة التالية التي يرويها ابن الأثير في الكامل دلالة واضحة على ما نقول، يقول ابن الأثير:

اتفق أن المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام إليه شيخ فقال له: يا أبا إسحاق، فأراد الجنود ضربه وتنحيته، فمنعهم الخليفة وقال: يا شيخ مالك ؟ قال الشيخ: لا جزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكنتهم بيننا، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت

نساءنا وقتلت رجالنا ، والله لنقاتلنك بسهام السحر[1].

ودبّ نفوذ هؤلاء المماليك والموالي في جهاز الخلافة دبيب المرض إلى أن شل قدرة الخليفة تماماً، وأصبح الخليفة لا يملك من أمره شيئاً كثيراً، وأصبح نفوذ العسكر في قصر الخليفة وفي شؤون الحكم هو النفوذ الأقوى والأول.

ولم يكن استدعاء هؤلاء المماليك والموالي إلى مراكز العسكر من منطلقات إسلامية صحيحة، وإنما كان لغايات سياسية وأمنية، تخص الخليفة وقصره وجهاز حكمه، ولذلك لم يتم استدعاء هؤلاء المماليك وإناطة مراكز القوة والنفوذ بهم على أساس صحيح ، مما أدى في النتيجة إلى الشلل الكامل لإرادة الخليفة وإلى ازدياد سخط الناس وغضبهم على الخليفة وجهازه، وتمرد القادة العسكريين والولاة بما في أيديهم من القوة العسكرية والمال والولايات عن مركز الخلافة.

---

(١) الكامل لابن الأثير: ١٨١/٧.

٣ - الفتن الطائفية:

تأججت الفتن الطائفية بين المسلمين في العصر العباسي، ولا سيما في العصور المتأخرة من عصر العباسيين، ولا سيما في مركز الخلافة العباسية كالتي كانت تحدث بين السنة والشيعة من الفتن، أو بين الحنابلة والشافعية، أو بين الحنابلة والأشاعرة، أو بين الشافعية والحنفية.

وقد شهدت بغداد خلال هذه الفترة غارات وهجمات كبيرة وشرسة على الشيعة الذين كانوا يجتمعون في الكرخ من بغداد، وكان المهاجمون يشعلون الحرائق في المدارس والمكتبات، وقد أحرقوا في بعض هذه الهجمات مكتبة شيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي - رحمه الله - وأحرقوا الكرسي الذي كان يدّرس عليه.

وكان بنو العباس من وراء جملة من هذه الفتن يشجعونها ويدعمونها، وقد كان ابن الخليفة المستعصم بالتعاون مع الدويدار الصغير (دواتدار الصغير) قائد

الخليفة من وراء الهجوم الشرس على شيعة الكرخ في عهد المستعصم، بل في مقدمة هذا الهجوم الشرس.

وفي هذا الهجوم قتل الكثير من الأبرياء، وأحرقت البيوت على أصحابها، ونهبت البيوت والمحلات في الأسواق، وأخرجت النساء من بيوتهن على هيئة الأسرى يطاف بهن في الشوارع سافرات حفاة، وقد شددن على أشفار الخيل، وخوطب الخليفة في أمرهم، فأمر بالكف عنهم وحملت النسوة والأسرى إلى دار الرقيق، ثم أعيدوا بعد ذلك إلى بيوتهم وذويهم[1].

وتجري هذه الفتن في مركز الخلافة العباسية وبعلم من الخليفة نفسه وعلى يد ابن الخليفة وقائده، وخطر التتار يهدد بغداد مركز الخلافة ويهدد الخلافة نفسها[2].

ومن الفتن الكبرى التي عصفت بالدولة العباسية فتنة

---

(١) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٣١٥.

(٢) راجع في أحداث الفتن الطائفية الكامل لابن الأثير: ٨٣/٩ و ٢٠٥ و ٢١٣ وابن الفوطي ٢٧٦ و ٣٠٤.

خلق القران التي أضرت كثيراً بسلامة الدولة وأمنها واستقرارها، والتي أدت إلى إراقة الكثير من الدماء والاضطهاد والتعذيب طال الكثير من العلماء، ومنهم أحمد بن حنبل إمام المذهب الحنبلي، وكان الخليفة نفسه متورطاً في هذه الفتنة وطرفاً فيها. وحوادث هذه الفتن كثيرة في عهد هذه الدولة، والحديث عنها يطول ولسنا نربد أن نسهب أكثر من هذا الحد في تفصيل هذه الفتن، في هذه المقدمة، ولقد كانت لهذه الفتن أكبر الاثر في إضعاف ومن ثم في سقوط الدولة العباسية(١).

---

(١) راجع مؤيد الدين ابن العلقمي وأسرار سقوط الدولة العباسية: ص ٧٧ نقلا عن ابن الفوطي: الحوادث الجامعة: ٣١٥، وبغداد مدينة السلام: ٢٠٨، ومختصر تاريخ العرب: ٣٤٠. ويقول ابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ في أحداث سنة ٦٥٦ هـ: أمر أبو بكر ابن الخليفة المستعصم ركن الدين الدواتدر العسكر فنهبوا الكرخ (وقد كانت محلة الشيعة في بغداد) وركبوا من النساء الفواحش. (راجع تاريخ ابن الوردي: ٢ / ٢٧٩).

الاسباب السياسية والعسكرية لسقوط الخلافة العباسية

انفراط الدولة العباسية:

كانت دولة الخلافة العباسية في تصدع دائم.. فقد أعلنت الاندلس استقلالها عن الخلافة العباسية من سنة ١٣٨ هـ بعد أن هرب عبد الرحمن الداخل الى الاندلس ثم استولى الأدارسة على إفريقيا والمغرب سنة ١٧٣ وبقوا يحكمون المغرب الافريقي مائتي سنة.

وظهرت الدولة الفاطمية أواخر القرن الثالث واستمرت في الحكم على مصر والشام الى سنة ٥٦٧.

وفي ناحية الشرق استولى الملوك الايرانيون على بلاد إيران تحت عنوان اسم العباسية الى سقوط الدولة العباسية. . وفي كثير من الأحيان لم يكن خلفاء بني العباس يملكون منهم غير الخطبة والاسم والشرعية التي كان ينتزعها الغالب منهم من الخلفاء العباسيين بالقوة.

فحكم فيها الطاهريون، ثم الصفاريون، ثم السامانيون، وظهر البويهيون في القرن الرابع الهجري، وحكموا بلاد

إيران حتى سنة ٤٤٨هـ حيث قام فيها السلاجفة بالحكم واستمر حكمهم حتى قيام الدولة الخوارزمية في إيران وخوارزم من سنة ٥٢٢هـ إلى ٦٢٨هـ.

ودول أخرى تشظّت من دولة الخلافة العباسية مثل الدولة العلوية في طبرستان، والطولونية في مصر، والزيارية في جرجان، والحمدانية في حلب، والاخشيدية في مصر، والغزنوية في أفغانستان والهند، والاتابكية في اذربايجان، وغيرها من الولايات التي تشظّت من دولة الخلافة العباسية.

وكان لهذا الانفراط والتصدع المستمر في الحكم أثر عظيم في سقوط هيبة الخلافة، حتى لم يبق للخليفة غير بغداد أحياناً.

فقد أسقطوا أكثر بلدان الخلافة العباسية قبل ان يبلغوا بغداد، ولم يبق للخليفة غيرها. فكان الخليفة يمنّي نفسه أن يبقي هولاكو له بغداد يحكمها.

المشروع المغولي العسكري:

لقد كان للمغول مشروع عسكري متكامل منذ قيام جنكيزخان العسكري إلى تيمورلنك ومن جاء بعده من ملوك المغول.

وكان المشروع مشروعاً عالميا يمتد من روسيا، وآسيا الوسطى، وجورجيا، والقفقاس، والصين، وإيران، والعراق إلى الهند وكانت بلدان الخلافة العباسية جزءاً من هذا المشروع العسكري العالمي.

اجتياح العالم الاسلامي

وبدأ الغزو المغولي يهدد العالم الاسلامي منذ سنة ٦١٥هـ إلى سقوط بغداد فقد كانت الهجمات المغولية تتناول أطرافاً من العالم الإسلامي الكبير.

وكان الخلفاء العباسيون الذين عاصروا هذا الهجوم العسكري الكاسح على العالم الإسلامي في غياب عن هذا الهجوم العسكري الذي كان يجتاح العالم الاسلامي.

وقد كانت الدولة الخوارزمية في إيران وخوارزم تقع

سداً منيعاً تحجز المغول عن خراسان والعراق وبغداد مركز الخلافة العباسية.. ولو أن خلفاء بني عباس كانوا يَمُدّون الدولة الخوارزمية بالقوة العسكرية لدرء خطر المغول عنها لم تصل النوبة الى مركز الخلافة العباسية.

ولكن (الناصر) وهو يومئذ الخليفة تهاون في هذا الأمر حتى سقطت حكومة الخوارزميين على يد جنكيز سنة ٦١٦هـ.

ويتفجع ابن الأثير في (الكامل) بذكر هذا الحدث المفجع للعالم الاسلامي، وسكون الناصر، وهو الخليفة يومئذ عن هذا الخطر الذي داهم العالم الاسلامي، وهو خليفة المسلمين يومئذ.

يقول ابن الاثير متردداً في تسجيل هذا الحدث المفجع: (لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة، استعظاماً لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً، وأوخر أخرى. فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا

ليت أمي لم تلدني ويا ليتني كنت نسياً نسياً)[1].

بل الأمر كان يتجاوز - للأسف - هذا السكون. فقد كان الخليفة الناصر يُغْري المغول بضرب الخوارزميين وإسقاط القوة الخوارزمية في الشرق. فيقول ابن الأثير: (فقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الاسلام غير ذلك مما يذكر في بطون الدفاتر.

فكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر[2]

ثم يقول مصدقاً الأخبار التي تتردد بأن الخليفة أغرى المغول بغزو الخوارزميين:

(وإن كان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك، فهو الطامة

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ / ٣٠٤.
(٢) المصدر المتقدم ٥ / ٣٣٣.

الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب)[1].

كما لم يتحرك لصدّ هذا الهجوم عن العالم الاسلامي سائر ملوك المسلمين.. حتى طالهم الغزو، ولو كانوا يقفون منذ أول الاجتياح المغولي لخوارزم مع الخوارزميين لم يتمكن المغول أن يواصلوا هجومهم على أطراف العالم الاسلامي بهذه الصورة.

يقول ابن الأثير: (نسأل الله أن ييسّر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم)[2].

وفي موضع آخر يقول:

يسر اللهم للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد من العدو؟؟ بخطم. والملوك المسلمين من لا تتعدى همته بطنه وفرجه)[3].

---

(١) المصدر نفسه ٥ / ٣٠٦.

(٢) الكامل في التاريخ ٥ / ٣٠٥ علي شاشة، المكتبة الاسلامية الشاملة، الاصدار الثاني .

(٣) المصدر السابق ٥ / ٣١١.

حتى سقطت الدولة الخوارزمية سنة ٦١٦هـ، وتحطَمت هذه القوة شرقي الدولة العباسية، والخليفة في بغداد في شغل شاغل عن هذا الخطر العظيم الذي يداهم العالم الاسلامي.

(وكان للمستنصر بالله أخ يعرف بالخفاجي، يزيد عليه في الشهامة والشجاعة، وكان يقول: إن ملكني الله تعالى أمر الأمة لاعبرن بالعساكر نهر جيحون وانتزع البلاد من يد التتر، وأفنيهم قتلاً وأسراً وسبياً، فلما توفي المستنصر بالله لم ير (الدويدار) و(الشرابي)، وكانا غالبين على الأمر، ولا بقية أرباب الدولة تقليده الخلافة خوفاً منه، ولما يعلمون من استقلاله بالأمر واستبداده بالتدبير دونهم، وآثروا أن يليها المستعصم بالله لما يعلمون من لينه وانقياده ليكون الأمر إليهم، فاتفق رأي أرب الدولة على تقليد المستعصم بالله الخلافة بعد أبيه، فتقلدها، واستبدوا بالتدبير)[1].

وكان المستعصم ضعيفاً، وآل ضعفه الى سقوط

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١ / ٩٧ لليونيني.

الخلافة العثمانية في عهده وكان اذا ذكر بسقوط أطراف الدولة العباسية في أيامه يقول: (أنا بغداد تكفيني، ولا يستكثرونها اذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا يهجمون عليّ وأنا بها، وهي بيتي ودار مقامي، فهذه الخيالات الفاسدة وامثالها عدلت به عن الصواب)[1].

وكان الخليفة غارقا في لهوه وصيده والمغول يحتلون كل يوم شطراً جديداً من العالم الإسلامي.

ففي جمادى ٦٤٦ يتوجه الخليفة الى النزهة والصيد ومع الخليفة عدد كبير من الأمراء والكبراء مثل شيخ الشيوخ أبي المظفر علي بن النيار، وصدر الديوان أبي الدامغان، وغيرهم. وعندما يرجعون توزع الصيود على الوزير وارباب الدولة هدية من الخليفة[2].. وفي هذه السنة كان المغول يتقدمون الى بغداد مركز الخلافة العباسية بخطوات سريعة. وفي ذلك يذكر ابن الطقطقي

---

(١) تاريخ محضر الدول لابن العبري ١ / ١٥٨ .
(٢) العسجد المسبوك ٢ / ٥٦٣ .

في (الفخري في الآداب السلطانية) عن بعض الشعراء فيما حلّ ببغداد من النكبة عهد المستعصم:

«وا ضيعة الناس والدين الحنيف وما
تلقاه من حادثات الدهر بغداد
هتك، وقتل، وأحداث يشيب لها
رأس الوليد، وتعذيب، وأصفاد

ثم يقول كل ذلك، وهو (أي المستعصم) عاكف على سماع الاغاني واستماع المثالب والمثاني، وملكه قد اصبح واهي المباني».

ثم يقول: (ومما اشتهر عنه انه (المستعصم) كتب الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب. وفي تلك الحال دخل رسول السلطان هولاكو إليه يطلب منجنيقات وآلات الحصار، فقال بدر الدين: انظروا المطلوبين، وابكوا على الإسلام وأهله)[1].

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ١٣ .

ويقول الدكتور سعد الغامدي في وصف ولع المستعصم بالغناء والطرب:

(لم يكن وصف المستعصم بتلك الاوصاف وخاصة حبه للموسيقى وولعه بجمع المغنين والمغنيات والراقصين والراقصات مقصوراً على مراجعنا الإسلامية فحسب، بل إنّ شغفه وحبه الشديد لهذه الأشياء قد وجد له صدىً حتى في المراجع الصينية التي روت فيما روته عن هذا الخليفة ان سماعه للموسيقى كان يخفف ألم الصداع عنه)[1].

تسريح الجند:

ولم يكن المتأخرون من خلفاء بني العباس يهتمّون كثيراً بتعبئة الجند لدفع الاخطار عن العالم الاسلامي، فكانوا يكتفون بالمماليك الذين كانوا في الغالب من الأتراك ولا يتجاوز عددهم بضع آلاف.. فإذا طالتهم

---

(١) سقوط الدولة العباسية للدكتور الغامدي ٢٠٣.

مشكلة جندوا الرجال، واذا انتهت المشكلة سرحوهم للاقتصاد في ارزاق الجند، حتى قيل أن بعض الذين سرحوهم من الجند ممّن لم يجدوا عملا لهم انتظموا في جيش المغول(١).

كانت هذه صورة مصغرة عن تفتت أوصال دولة الخلافة العباسية في هذه الفترة. . وما تحدثنا عنه، وإن كان مقتضباً موجزاً شديد الايجاز يكفي لمعرفة الاسباب التي ادت الى سقوط دولة بني العباس وما تضمنته من نكبة سقوط بغداد في هذه الفترة. .

وإنما شرحنا ذلك لكي لا يصبّ المؤرخون المحدثون جام غضبهم وسخطهم على الوزير ابن العلقمي، الذي كان من خيرة وزراء بني العباس، ولكن القدر أراد له ان يعيش في هذه الفترة الصعبة.

وقد سعى الرجل كلما بوسعه ان يدفع الخطر عن بغداد، ولكن ضعف الخليفة، وحسد (دويدار) و(الشرابي)

---

(١) تاريخ العراق، فاروق عمر ٣٦٢.

المقربين من الخليفة حال دون ذلك.

فكانت النكبة التي حلّت ببغداد وبالخلافة العباسية وبالإسلام والمسلمين.

دور ابن العلقمي في دفع المغول عن بغداد:

وقد ذكر المؤرخون المعاصرون لنكبة بغداد أنّ ابن العلقمي حاول أن يدفع المغول عن بغداد باقناع الخليفة بأن يقدم لهم هدايا كثيرة ليدفع بها المغول عن دخول بغداد، وقد وافق الخليفة أول الأمر على المشروع الذي اقترحه عليه وزيره ابن العلقمي.

إلا أن نجل الخليفة من جانب وحسد (الدويدار) من جانب آخر حالا دون ذلك، وأحبطا مشروع الوزير. فقد قال (دويدار) للخليفة أن الوزير يريد أن يتقرب بهذه الهدايا إلى هولاكو المغولي، فامتنع الخليفة من تقديم الهدايا بالحجم الذي طلبه منه الوزير وأرسل اليه هدايا يسيرة، استقلها هولاكو ووزعها على حاشيته، وأقدم على اقتحام بغداد بالصورة التي نقرؤها نحن في كتب التاريخ.

يقول ابن الطقطقي في الآداب السلطانية وهو من المعاصرين للحادث (٦٦٠هـ ٧٠٩هـ) عن تفريط الخليفة في فرص الصلح مع هولاكو ودفعه عن بغداد (وكان كلما سمع عن السلطان «هولاكو» من الاحتياط والاستعداد «لاقتحام بغداد» ظهر من الخليفة نقيضه من التفريط والاهمال، ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك، ولا يعرف هذه الدولة حق المعرفة، وكان وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي يعرف حقيقة الحال في ذلك، ويكاتبه بالتحذير والتنبيه، ويشير عليه باليقظة والاحتياط والاستعداد، وهو لا يزداد الا غفولاً، وكان خواصه يوهمونه: أنه ليس في هذا كبير خطر، ولا هناك محذور، وأن الوزير إنما يعظم هذا لينفق سوقه، ولتبرز إليه الأموال، ليجند بها العساكر، فيقتطع منها لنفسه)[1].

ويقول علاء عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن محمد

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية لابن الطقطقي ١٢٢ (المكتبة الاسلامية الشاملة).

الجويني، وهو ايضا ممن عاصر هذه النكبة (توفي سنة ٦٥٨هـ) في كتابه (تاريخ جهانكشاي) والكتاب مؤلف بالفارسية. . يقول:

إنّ الوزير كان كيساً لبيباً. وعندما استشاروه فيما يجب أن يفعلوه قال: لا وجه غير ارضاء هذا الملك الجبار، بارسال الاموال الكثيرة والمجوهرات والمرصعات وبذل التحف الفاخرة وارسال الخيول والبغال والغلمان والجواري والجمال وتقديم الاعتذار له، ووافق الخليفة على رأي الوزير، وبدأ بالاعداد لذلك، إلاّ أنّ (الدوات دار) (دويدار) الصغير ومعه عدد من الاعيان، قالوا ان الوزير انما يدبر أمر نفسه مع التتار والخليفة ركن إلى رأيهم وجمعهم[1].

وكذلك رشيد الدين فضل الله الهمداني، وهو ممن عاصر الحدث وذكر سقوط بغداد في تاريخه (جامع

---

(١) تاريخ جهانكشاي ٣ / ٢٨٠ - ٢٨١، نقلاً عن ابن العلقمي تاليف عيدان العبادي.

التـواريخ) يـذكر ابـن العلقمـي بالنصـح، وان دوات دار (دويدار) هو الذي أفشل مشروع الوزير حسداً، وهو الذي اتهم الوزير بالخيانة لا سباب شخصية[1].

وذكـر ابـن الفـوطي الحـادث فـي كتابـه (الحـوادث الجامعـة)، وقـال إنّ الـوزير ابـن العلقمـي نصـح الخليفـة بمداراة هولاكو ودفعه بالهدايا، ولكن (دويدار) وآخـرين غيـروا رأي الخليفـة[2].. وهـو ايضـا ممـن عاصـر الحـدث (٦٤٢هـ - ٧٢٣هـ).

وكذلك ابن العبري وهو كـذلك ممـن عاصـر الحـدث (تـوفي سـنة ٦٨٥هــ) تحـدث عـن نصـيحة ابـن العلقمـي للخليفة بدرء خطر المغول عن بغداد بهدايا كثيـرة واقتنـاع الخليفة بنصيحة الوزير ابتداءً، وحسد الدويدار، وقـد نقلنـا كلامه من قبل فلا نعيد.

---

(١) جامع التواريخ ٢ / ٧٠٤ - ٧٠٧.

(٢) الحوادث الجامعة ١٥٤ - ١٥٥.

القصص الملحقة باتهام ابن العلقمي

وقد انتحلوا قصصاً وأضافوها الى الحادث لاتهام ابن العلقمي. . ومن ذلك ما ذكره ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات. . يقول:

(وحكي أنّه لما كان يكاتب التتار تحيّل إلى ان أخذ رجلاً، وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما اراد عليه بالابر، ونفض عليه الكحل، وتركه عنده إلى ان طلع شعره وغطى ما كتب فجّهزه، وقال: اذا وصلت مرهم بحلق رأسك، ودعهم يقرأون ما فيه، وكان آخر الكلام: اقطعوا الورقة، فضربت عنقه. وهذا غاية المكر والخزي)[1].

وهي اسطورة منتحلة واضحة الانتحال.

وذكر ابن الوردي (وهو ممن يصر على اتهام ابن العلقمي بالخيانة) قصة تشبه القصة المتقدمة وهي: (ان الوزير قال للمستعصم ان هولاكو يبقيك في الخلافة، كما فعل بسلطان الروم، ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر،

---

(١) فوات الوفيات: ابن شاكر الكتبي ٣ / ٢٥٥ دار صادر - بيروت.

وحسّن له الخروج الى هولاكو فخرج اليه المستعصم في جمع من اكابر اصحابه، فانزل في خيمة، ثم استدعى ابن العلقمي الفقهاء، والاماثل، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسين ومنهم ملك الامراء ركن الدين دويدار المستنصري أحد الشجعان، واستاذ دار الخلافة العامة محي الدين ابن الجوزي واولاده، وكذلك صار يخرج الى التتر طائفة بعد طائفة موهماً لهم انهم يحضرون عقد ابن الخليفة على بنت هولاكو فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم)[1].

وهذه القصة كسابقتها واضحة الانتحال، والغاية منها اتهام الوزير الشيعي ابن العلقمي ليس غير. وإلاّ فلم يكن المغول بحاجة إلى شيء من ذلك، وقد سقطت بغداد في ايديهم.

يقول الدكتور حسن ابراهيم في تفنيد هذه المزاعم، وأنّ المغول لم يكونوا بحاجة الى شيء من ذلك يقول:

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢ / ٢٨١ .

(إن هذه الآراء لا تتفق مع الحقيقة التاريخية، وهي أنّ فتح المغول بغداد كان جزءاً من مشروع سياسي يهدف الى اتساع رقعة امبراطوية المغول بعد ان تمّ فتح امبراطورية الصين الشمالية وأواسط آسيا وإيران وجورجيا والقوقاز وروسيا وبولندة وغيرها)[1].

وقد طالت المحنة الشيعة والسنة معاً، ولم يستثني المغول الشيعة وأحياءهم في بغداد من هذه المذبحة الفظيعة.

يقول الملك الاشرف اسماعيل الغساني: راح ضحية السيف الرافضة والسنة وأمم لا يحصون[2].

ويقول ابن تغري بردي: وراح من الطائفتين (الشيعة والسنة) أمم لا يحصون كثرة[3]. ولو كان ثمة مؤامرة على دولة الخلافة العباسية مع المغول من جانب الشيعة، كما

---

(١) تاريخ الاسلام ٤ / ١٦٢.

(٢) العسجد المسبوك ص ٦٤١.

(٣) النجوم الزاهرة ٧ / ٥٠ لابن تغري بردي.

يحب ابن كثير وابن الوردي ان يقولا، لاستثنوا المغول الاحياء الشيعة، إلاّ ان المغول قد اعطوا السيف لكل المسلمين في بغداد، ولم يسلم منهم احد إلاّ الذين اختفوا في الحفر تحت الارض والآبار وقنوات المياه، وقد أجمع الذين ارخوا هذه المرحلة أنّ المذبحة شملت بغداد بشيعتها وسنتها.. وقد كان ابن العلقمي يريد ان يدفع هذه النكبة عن بغداد من الشيعة والسنة. غير ان حسد الدويدار (الدوات دار) وآخرين للوزير الشيعي أفشل هذه الخطة وتسببوا بشكل أو بآخر في هذه المذبحة الكبرى في تاريخ الاسلام، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

دور المحقق نصير الدين الطوسي:

لقد كان للمحقق الطوسي (الخواجة نصير الدين الطوسي) رحمه الله دور كبير في حفظ ما أمكن حفظه، ودرء ما أمكن درؤه من الاجتياح المغولي.

فقد طلب منه هولاكو، عندما عرف أنه عالم بالأرصاد والرياضيات والهندسة والفلسفة أن يرافقه، وقرّبه منه،

وكان لهذه المرافقة أثر كبير في إنقاذ ما أمكن انقاذه من العلم والعلماء. ويتهم (ابن تيمية) كعادته المحقق الطوسي بأنّه قد أشار على هولاكو بقتل الخليفة.. وهو ليس إلاّ تخرّص من ابن تيمية كعادته في اتهام علماء الشيعة.

ويردّه ابن كثير في (البداية والنهاية)، فيقول: ومن الناس (يعني ابن تيمية) من يزعم أنه أشار على هولاكو خان بقتل الخليفة، فالله أعلم. وعندي أن هذا لا يصدر من عاقل ولا فاضل[1].

وقد تمكن المحقق الطوسي في هذه الصحبة من انقاذ كثير من الكتب التي كانت تزخر به مكتبات بغداد والعلماء الذين تمكّن من إنقاذهم.

وأقام في (مراغة) (العاصمة الصيفية لحكام المغول) مرصداً عظيماً، وجمع تحت هذا العنوان جمعاً من العلماء، أنقذهم من الهجوم المغولي، وتولى الاوقاف العامة لكل

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٧ .

الممالك[1]، وكان يصرفها عليهم وعلى المرصد.

يقول ابن شاكر الكتبي في (فوات الوفيات):

(وكان ذا حرمة وافرة ومنزلة عالية عند هولاكو، وكان يطيعه فيما يشير به عليه، والأموال في تصرفه، وبنى بمراغة قبة ورصداً عظيماً، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء، وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد، وقرر (أموالاً) لرصد المنجمين والفلاسفة، وجعل له الأوقاف)[2].

وكان يسعى إلى إنقاذ من يمكن إنقاذه من العلماء من القتل، وله قصة طريفة مع هولاكو في إنقاذ علاء الدين الجويني وآخرين من السجناء بعد ان بلغه أن هولاكو أمر بقتله، يذكرها صاحب فوات الوفيات[3].

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٣ / ٢٥٠ .

(٢) فوات الوفيات ٣ / ٢٤٧ .

(٣) فوات الوفيات ٣ / ٢٤٧ .

وقد تشفع المحقق الطوسي فيمن تشفع للوزير ابن العلقمي، فسلم من القتل، في جمع من العلماء الذين تشفع لهم عند هولاكو.

كلمة الدكتور الغامدي

ويعجبني في نهاية هذا الفصل ان انقل شطراً مما كتبه الدكتور سعد الغامدي وهو استاذ في جامعة الرياض كلية الآداب قسم التاريخ في كتابه (سقوط الدولة العباسية)(١).

(إن المؤرخ السني المذهب سبط بن الجوزي «الذي يعتبر معاصراً للغزو المغولي لبغداد، حيث توفي في سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م اثناء حملة هولاكو باتجاه بغداد وأراضي الدولة العباسية بشكل عام» كان قد امتدح هذا الوزير، وأشاد به، إذ وصفه بأنه رجل ورع، تقي، مستقيم، وأنه قارئ لكتاب الله الكريم(٢)، ولم يرد في مؤلف سبط ابن

---

(١) ولا يحضرني الكتاب ونقلت هذه الجملة من كتاب الوزير ابن العلقمي للاستاذ جعفر حنتوش ص ١٥٨ فصاعداً.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآت الزمان ج ٢، ص ٧٤٧ - ٧٦٢.

الجوزي - لا من قريب ولا من بعيد - أية إشارة قد يستدل منها على انتقاص من حق هذا الوزير، أو الطعن في ولائه، وإخلاصه في وظيفته. لذلك فإننا نجد لهذا التقرير، الذي اورده لنا سبط ابن الجوزي عنه في هذا الكتاب دليلاً واضحاً، على أن تلك الاتهامات قد اصطنعها خصوم الوزير، وعلى رأسهم الدويدار الصغير، وألصقوها به).

ثم يقول الغامدي: (يبدو لنا أنّ من غير المحتمل إن لم يكن من المستحيل، أن يذهب الوزير إلى ذلك الحد المتطرف، ويدعو المغول، ويحثهم على القدوم إلى العراق ليضعوا نهاية للأسرة العباسية الحاكمة، لكي ينتقم من عدوه ومنافسه الوحيد، وهو الدويدار، ذلك المملوك التركي، وما جرّه الغزو المغولي وراءه من دمار شامل لكل عراقي، وهل كان الوزير إلاّ واحداً منهم. فمن المعروف أن الخليفة المستعصم ووزيره كانا على وفاق وصداقة وطيدة ومكينة بينهما. وكان المستعصم يكن تقديراً واحتراماً تجاه وزيره ابن العلقمي، وكان يرسل له هدايا

ثمينة وقيّمة في كل مناسبة. لهذا نجد من غير الممكن أن يكون الوزير يرغب أن يسبب أي متاعب لسيده المستعصم، لأنه من المعروف أن الخلافات كانت بين الدويدار الصغير «الذي كان المتسلط على الخليفة ومقدّرات الخلافة العباسية» وبين الوزير، ولم تكن بين الأخير والخليفة العباسي ولي نعمته)[1].

(ثمّ إنّ هذه الاتهامات التي وجهت ضد الوزير، لم تكن قد جاءت من مؤرخين عراقيين، معاصرين لتلك الاحداث، بل جاءت من مؤرخين من خارج الأراضي العراقية كالمؤرخ الفارسي الجوزجاني[2] الذي كان يعيش في دلهي في الهند، أيام سقوط العاصمة العباسية بغداد.

كما جاءت تلك الاتهامات في كتاب (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) أو (الذيل على الروضتين) لأبي شامة، الذي كان يعيش في أراضي الشام، ربما كان في

---

(١) الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٣٤٤.

(٢) وهو الجوزجاني في كتابه طبقات ناصري.

دمشق.

وفي الحقيقة لا يوجد أي شاهد يثبت أنه رأى الرسول المزعوم، الذي أرسله الوزير ابن العلقمي لمقابلة القائد المغولي هولاكو[1]، كما إننا لم نعثر في مصادرنا على أية رواية يستنتج منها أن هناك وثيقة تتعلق بهذا الأمر قد أخفيت، بحيث تضع هذا الوزير العباسي في مركز قد يصبح فيه متهماً)[2].

(كان الوزير على علم تام، ويقين صادق، بعدم مقدرة الخلافة العباسية بالدفاع عن أراضيها الخاصة، ضد أية قوة، مهما كانت ضآلة وصغر حجم تلك القوة الخارجية المعتدية، فما بالك بقوة عملاقة وجبارة كالقوة المغولية. ربما ان ابن العلقمي كان على علم تام بهذه الحقيقة فقد

---

(١) يشير إلى قصة حلق رأس شخص وكتابة الرسالة على رأسه بالمسامير إلى هولاكو ثم إرساله إلى هولاكو بعد أن نبت شعره. ويقول فيه له أن اقطع الورقة، وهو بمعنى قتل الرجل الذي حمل الرسالة على رأسه فقتل إلى آخر الاسطورة.

(٢) الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٣٤٤.

قام بإنذار الخليفة منهم، واطلاعه على حقيقة قوتهم، منذ ان شرع المغول في حصارهم ضد الاسماعيليين، وقلاعهم المنيعة في إيران، واستمروا على ذلك حتى وصلوا إلى ضواحي عاصمة الدولة العباسية (بغداد). لذلك ارتأى وجوب مهادنة المغول واسترضاء سيدهم القائد، ببذل الهدايا والتحف للقادة الكبار منهم، وكان الخليفة نفسه يرى ما كان يراه وزيره، ووافقه على اقتراحاته تلك، ولكن كانت الاقتراحات هذه تقابل بمعارضة قوية جداً، قام بها الدويدار الصغير قائد القوة العسكرية التي تتكوّن من المماليك، فهدد الخليفة والوزير بأنه سوف يقوم بقواته بمصادرة كل شيء يرسلونه إلى المغول، ففرض رأيه وإرادته، متحدياً بذلك كل السلطات.

كان موقف الدويدار هذا جزءاً من النزاعات والمهاترات، وانعدام الوحدة الادارية، بين أعضاء حكومة البلاط العباسي، وكان من نتائج هذا الاقتراح الذي كان الوزير قد تقدم به إلى الخليفة، أن قام الدويدار باتهام ابن

العلقمي بأنه كان متواطئاً مع المغول، وأنه كان لا يهمه إلاّ مصالحه الخاصة الشخصية في مسألة مهادنة المغول)[1].

(وكان المؤرخ السوري ابو شامة الذي عاش في الشام، ومات بها سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م، هو أول مؤرخ عربي سني - حسب معلوماتنا - يذكر هذه الادعاءات ضد الوزير، وذلك في كتابه المعروف بـ (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) أو (الذيل على الروضتين). ويظهر لنا أن أبا شامة لم يكن يعرف عن حقيقة ما كان يجري من أحداث في داخل بلاط الخليفة المستعصم، بل لم يكن مطلعاً على أخبار القطر العراقي في جملته، إذ لم يعرف إلاّ النزر اليسير عن شؤون الدولة العباسية العامة فقط. ثم إنه لم يكن لديه سوى فكرة عامة يشوبها الغموض والتشويش وعدم الوضوح. كان أبو شامة يجهل المغول أنفسهم، وعن حقيقة أمرهم، فما بالك بمعرفته بما سبق واتخذه المغول من قرارات في قلب منغوليا (في عاصمتهم «قرا -

(١) الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٣٤٦.

قروم») فيما يتعلق بمسألة حملتهم، التي اسندت قيادتها إلى هولاكو)[1].

(وجاء المؤرخ قطب الدين البونيني، بعد أبي شامة، فنقل عنه مقالته تلك، وأضاف عليها بضع كلمات، بعد ذلك جاء مؤرخ شامي ثالث وهو شمس الدين الذهبي، فنقل تلك الرواية، التي أوردها البونيني بحذافيرها «والذهبي كان ممن نقل عن البونيني الكلمة بالكلمة إلى حد كبير» وفي ذات الوقت جاء ابن شاكر الكتبي، فنقل عن المؤرخين السابقين عن أبي شامة والبونيني، وهكذا أخذ كل مؤرخ عن سابقيه، مع إضافة كلمات من عنده تناسب المقام، فكانت بمثابة لبنة في بناء، أو عود حطب، لإبقاء النار متقدة وبهذه الطريقة، وبمرور الزمن اكتسبت هذه القصة مادة تاريخية عن طريق روايات المؤرخين،

---

(١) ابو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٩٨. الغامدي ص ٣٤٦.

فاتخذت شكلاً وكأنها حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل)[1].

(لقد خدم ابن العلقمي الدولة العباسية قرابة ثلث قرن من الزمن، حيث التحق بخدمة هذه الأسرة في عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م، أو في سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م، كواحد من كبار موظفي دار الخلافة. وأخذ يتدرج في وظائف هذه الدولة العليا، من مركز إلى أعلى منه مكانة، حتى وصل في سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م إلى منصب الوزارة.

ظل في هذا المنصب طوال الخمس عشرة سنة التي تلت وحتى سقوط بغداد، وفي خلال تلك السنوات الطوال من خدمة ابن العلقمي التي تبلغ أكثر من ربع قرن، لم نعثر في مراجعنا على أن أحداً قد اتهمه بأية خيانة، أو بأية مسألة قد تقلل من مكانة هذا الوزير أو من كفاءته ووفائه وإخلاصه لمخدوميه)[2].

(لذلك نجد أنه من غير المحتمل إن لم يكن من

---

(١) الغامدي سقوط الدولة العباسية، ص ٣٤٧.

(٢) الغامدي، سقوط الدولة العباسية ص ٣٤٨.

المستحيل - كما يظهر لنا - أن يقوم ذلك الرجل، صاحب تلك الخدمات الطويلة، في آخر سنوات عمره، بارتكاب مثل تلك الخيانة العظمى، التي وجهها ضده أعداؤه ضد دينه ووطنه وسيده ذلك السيد الذي يقدره ويجلّه، الذي كان صديقاً حميماً، أكثر من كونه رئيساً عليه)[١].

دور الحلة في الحد من هجوم التتار:

كان سقوط بغداد أمراً حتمياً لا مفر منه، وكان رجال المسلمين في العراق ينظرون إلى هذه الحقيقة المأساوية بأسى وأسف بالغين، فلم يكن للخليفة العباسي المستعصم قدرة على صد الهجوم وإحباطه، ولم يكن لديه استعداد على امتصاص ضراوة التتار ببعض الهدايا والتنازلات، كما اقترح عليه وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي، وبقيت بغداد بين ضعف الخليفة العباسي وغروره واعتداده بنفسه مهددة بالخطر الحقيقي من قبل هولاكو.

---

(١) الغامدي سقوط الدولة العباسية، ص ٣٤٧.

وظل المسلمون ينظرون إلى هذا الخطر المقبل على قلب العالم الإسلامي بجزع.

وتمت محاصرة بغداد من قبل التتار فكان لابد من عمل سريع من قبل رجال المسلمين بعد عجز الخليفة عن درء الخطر عن نفسه وعن مركز سلطانه بغداد للحد من الخسائر وتقليلها مهما أمكن، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم وتراثهم وأفكارهم من الغزو المغولي الذي يطوّق بغداد.

وكانت مدينة الحلّة يومذاك من أهم المراكز العلمية في العراق، وكانت هذه المدينة مركزاً معروفاً للشيعة يسكنها في أوان هذه المحنة علماء بارزون من الشيعة من أمثال المحقق الحلي والإمام سديد الدين يوسف بن علي بن مطهر ـ والد العلامة ـ والإمام رضي الدين ابن طاووس، والسيد مجد الدين محمد بن الحسن بن طاووس، والفقيه ابن أبي العز، وغيرهم من رجال الشيعة وزعمائها وأصحاب الشأن منهم.

فأدرك هؤلاء ضرورة التحرك السريع لدرء الخطر المقبل، وامتصاص ضراوة التتار ونقمتهم، والعمل على دفع هجوم التتار من سائر بقاع العراق، ولا سيما المراكز الدينية منها.

وكان الناس من بعد ما سمعوا فروا من المدينة إلى المناطق النائية ليسلموا بأنفسهم وما يمكن نقله من أموالهم، فاستقر رأي علماء الشيعة في الحلة على إيفاد وفد من علماء الحلة إلى هولاكو يطلبون منه الامان للحلة وما والاها من المناطق.

الوفد الأول:

يقول العلامة الحلي - رحمه الله - في كتابه (كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين):

لما وصل السلطان هولاكو إلى بغداد قبل أن يفتحها هرب أكثر الحلة إلى البطائح إلا القليل، فكان من جملة القليل والدي - رحمه الله - والسيد مجد الدين ابن طاووس، والفقيه ابن أبي العرفاء، اجتمع رأيهم على

مكاتبة السلطان، بأنهم داخلون تحت الإيليّة، وأنفذوا به شخصاً أعجمياً، فأنفذ السلطان إليهم فرماناً مع شخصين أحدهما يقال له: نكلة، والآخر يقال له: علاء الدين، وقال لهما: قولا لهم: إن كانت قلوبكم كما وردت به كتبكم تحضرون إلينا، فجاء الأميران، فخافوا لعدم معرفتهم بما ينتهي الحال إليه. فقال والدي - رحمه الله -: إن جئت وحدي يكفي؟ فقالا: نعم، فأُصعد معهما.

فلما حضر بين يديه وكان ذلك قبل فتح بغداد وقبل قتل الخليفة قال له: كيف قدمتم على مكاتبتي والحضور عندي قبل أن تعلموا بما ينتهي إليه أمري وأمر صاحبكم؟ وكيف تأمنون أن يصالحني ورحلت عنه؟ فقال والدي: انما أقدمنا على ذلك لانا روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال في خطبته:

الزوراء، وما أدراك ما الزوراء، أرض ذات أثل يشيد فيها البنيان، وتكثر فيها السكان، ويكون فيها مهادم وخزان، يتخذها ولد العباس موطناً، ولزخرفهم مسكناً،

تكون لهم دار لهو ولعب، يكون بها الجور الجائر والخوف المخيف والأئمة الفجرة والأمراء الفسقة والوزراء الخونة، تخدمهم أبناء فارس والروم، لا يأمرون بمعروف إذا عرفوه، ولا يتناهون عن منكر إذا نكروه، تكتفي الرجال منهم بالرجال والنساء بالنساء، فعند ذلك الغم العميم، والبكاء الطويل، والويل والعويل لأهل الزوراء من سطوات الترك، وهم قوم صغار الحدق، وجوههم كالمجان المطرقة، لباسهم الحديد، جرد مرد، يقدمهم ملك يأتي من حيث بدا ملكهم، جهوري الصوت، قوي الصولة، لا يمر بمدينة إلا فتحها، ولا ترفع عليه راية إلا يكشفها، الويل الويل لمن ناواه، فلا يزال كذلك حتى يظفر.

فلمّا وصف لنا ذلك ووجدنا الصفات فيك رجوناك فقصدناك، فطيب قلوبهم، وكتب لهم فرماناً لهم باسم والدي - رحمه الله - يطيب فيه قلوب أهل الحلة

وأعمالها[1]

الوفد الثاني:

وهناك رواية أخرى بشأن الوفد الذي التقى هولاكو من مدينة الحلة، وبناء على هذه الرواية يتكون الوفد من جمع من وجهاء العلويين بصحبة السيد مجد الدين ابن طاووس، الذي ألف فيما بعد كتاب (البشارة) وأهداه إلى السلطان المغولي درءاً لشره وأذاه عن المسلمين.

وهذه الرواية يرويها المؤرخ المعروف ابن الفوطي في (الحوادث الجامعة). ولما كانت الرواية الأولى من العلامة الحلي، وهو شاهد وحاضر في هذه القصة، وكان الأمر يتعلق بوالده الإمام سديد الدين ابن المطهر، وليس لدينا من سبب للتشكيك في إسناد كتاب (كشف اليقين) إلى العلامة الحلي والكتاب مطبوع أكثر من مرة، ويذكره العلامة في كتابه (نهج الحق) وتوجد منه نسخ مخطوطة

---

(١) روضات الجنات: ٨/ ٢٠٠ و ٢٠١.

متعددة[1] كما توجد منه طبعات متعددة، وعليه فلا سبيل للتشكيك في هذه الرواية.

كما لا سبيل للتشكيك في رواية ابن الفوطي، فإن الشيخ كمال الدين عبد الرزاق ابن الفوطي عاصر هذه الكارثة (٦٤٦ - ٧٠٠هـ)، وهو راوية ثقة وليس من سبب للتشكيك في صحة روايته. وعليه فنحن نتصوّر أن الحلة أوفدت إلى هولاكو وفدين، وليس وفداً واحداً: الوفد الأول برئاسة الإمام سديد الدين ابن المطهر والد العلامة - رحمهما الله - (أو الإمام سديد الدين وحده كما يظهر من رواية العلامة). والوفد الثاني برئاسة السيد مجد الدين ابن طاووس صاحب كتاب (البشارة).

وكان الوفد الثاني وفداً كبيراً يتكون من جمع من وجهاء العلويين، يترأسهم السيد مجد الدين ابن طاووس، ويبدو أن هذا الوفد التقى هولاكو بعد أن اطمأنوا إلى هولاكو، ومهما يكن من أمر فسوف نستعرض قصة الوفد

---

(١) الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ١٨/ ٦٩.

الثاني برواية ابن الفوطي.

يروي ابن الفوطي: أنه في سنة ست وخمسين وستمائة سار السلطان هولاكوخان من بلاده نحو بغداد، وكان أهالي الحلة والكوفة قد انتزحوا إلى البطائح بأولادهم وما قدروا عليهم من أموالهم، وحضر أكابر من العلويين والفقهاء مع مجد الدين ابن طاووس العلوي إلى حضرة السلطان، وسألوا حقن دمائهم، فأجاب سؤالهم وعيّن لهم شحنة، فعادوا إلى بلادهم وأرسلوا إلى من في البطائح من الناس يعرفونهم ذلك، فحضروا بأهليهم وأموالهم وجمعوا مالا عظيماً وحملوه إلى السلطان[1].

ويقول النسابة الشهير السيد جمال الدين أحمد بن علي بن الحسين المعروف بابن عنبة المتوفى سنة ٨٢٨ في ترجمة مجد الدين ابن طاووس: خرج إلى السلطان هولاكوخان وصنّف له كتاب (البشارة) وسلم بذلك الحلّة والنيل والمشهدين الشريفين من القتل والنهب، وردّ إليه

---

(١) الحوادث الجامعة لابن الفوطي: ص ٢٢٣.

حكم النقابة بالبلاد الفراتية، فحكم في ذلك قليلاً ثم مات[1].

الوفد الثالث:

وهناك وفد ثالث أعظم منهما ترأسه الإمام الزاهد رضي الدين ابن طاووس - رحمه الله - وقد صحبه في هذا الوفد نحو ألف من الناس. ويظهر من الرواية أن السيد رضي الدين التقى هولاكو هذه المرة برغبة من هولاكو نفسه، وقد أولاه هولاكو في هذه المقابلة نقابة العلويين، ولنذكر الحديث برواية رضي الدين ابن طاووس - رحمه الله - نفسه في كتابه الكبير (الاقبال):

قال: فيما نذكره عن يوم الثامن والعشرين من محرّم، وكان يوم الاثنين سنة ست وخمسين وستمائة فتح ملك الأرض بغداد، وكنت مقيماً بها في داري بالمقيدية، وبتنا

---

(١) عمدة الطالب: ص ١٩٠ و ١٩١ واشار عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين: ٢٢٤/٩ إلى كتاب «البشارة» الذي أهداه السيد مجد الدين إلى هولاكو.

في ليلة هائلة من المخاوف الدنيوية، فسلمنا الله جلّ جلاله من تلك الأهوال، ولم نزل في حمى السلامة الإلهية وتصديق ما عرفناه من الوعود النبوية... إلى أن استدعاني ملك الأرض إلى دركاته في صفر، وولاني على العلويين والعلماء والزهاد، وصحبت معي نحو ألف نفس ومعنا من جانبه من حمانا، إلى أن وصلت الحلة ظافرين بالآمال، وقد قررت مع نفسي أنني أصلي في كل يوم من مثل اليوم المذكور ركعتي الشكر للسلامة من ذلك المحذور[1].

ومهما كان من أمر فقد نجحت خطة علماء الشيعة في الحدّ من غزو التتار، وإيقاف الهجوم المغولي عند سقوط بغداد، وإنقاذ ما أمكن إنقاذه من دماء المسلمين وأعراضهم وتراثهم وأموالهم. ولو كان يقدر للجيش المغولي أن يعمل في الإبادة، والتخريب، والنهب، والحرق في سائر مناطق العراق ما صنعه ببغداد، لكانت أبعاد الكارثة أعظم مما حصل بكثير.

---

(١) الإقبال للسيد ابن طاووس: ص ٥٨٦.

ومما يؤسف له أن الذين أرخوا هذه الفترة لم يعرفوا قيمة الدور الذي نهض به علماء الشيعة في هذه الكارثة من درء الخطر عن وسط وجنوب العراق.

ولا نعدم من المؤرخين من حاول أن يفسر تحرك علماء الشيعة في هذه الفترة تفسيراً سلبياً مغالياً في السلبية، مفرطاً في سوء الظن، وليس يعنينا من أمر هؤلاء شيء، فإن الحقيقة من وراء هذا أو ذاك، أن علماء الشيعة حدوا كثيراً من ضراوة هذا الغزو وأنقذوا الكثير مما كان لا يمكن إنقاذه، لولا هذا التحرك السياسي.

فقد استطاع المحقق نصير الدين الطوسي - رحمه الله - مثلا من إنقاذ الكثير من مدن العراق من الغزو المغولي، كما استطاع أن ينقذ الكثير من علماء بغداد ومدارسها ومكتباتها، وقد سلم بفضل هذا العالم الجليل الكثير من التراث والكتب والمكتبات عند سقوط بغداد.

يقول محمّد شاكر الكتبي في (فوات الوفيات) في ترجمة نصير الدين الطوسي: كان رأساً في علم الأوائل

ولا سيما في الارصاد والمجسطي فإنه فاق الكبار، قرأ على المعين سالم ابن بدران المعتزلي الرافضي وغيره، وكان ذا حرمة ومنزلة عالية عند هولاكو، وكان يطيعه فيما يشير به عليه، والأموال في تصريفه وابتنى بمراغة قبة، ورصداً عظيماً شرع في تأسيسه سنة ٦٥٧، وجعل في الرصد داراً واسعة واستنبط آلات عديدة شريفة للارصاد، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء وملاها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد[١].

---

(١) تعليقة السيد محمّد صادق بحر العلوم على اللؤلؤة: ص ٢٤٥ و ٢٤٦ نقلاً عن «فوات الوفيات».



الفهرس